حكاية البنت هيسة !

قصة د. سيد شعبان

هذا أوان التفرح بما كان من شأنها؛ تتساءلون وما حديثها ؟
هذه حكايـة لم تدونها الكتب الصفراء في بطونها إذ تركوها للعجائز يتندرن بها ليالي الشتاء الطويلة حيث الريح تلطم خدود البيوت.
المترفـون فـي المدينة يسـرقون منـا الأحلام والواقـع، لم يعـد لنا ما نعيش عليه، حجزوا لأنفسـهم ولصغارهم كل شـيئ، تلك كانت الفقرة الأولـى من روايـة طالعتهـا الليلة الماضيـة، دارت الأفكار في رأسـي، فتحـت النافذة خشـية أن يكونوا أخفـوا القمر، يقال في تفسـير غيابه خبـر عجيب: لأصحاب القصور وحدهم يبـزغ وينير، يتراقصون على ضوئه؛ يشـبهون به نسـاءهم، يرسـمون لهن أجمـل اللوحات، وحين تشـرق الشمس تعابث أسرتهم أولا؛ إنهم يسـكنون الأدوار العليا، هل ترى الشمس بيوت الفقراء إلا بعد انتصاف النهار؟
أخرجـت قلمي الرصـاص الذي أكل الزمـن منه حتـى أتخمه عجزي، أوراقي متهرئة، لا أجد تفسـيرا لما أمر به من ضيق غير شعور بالعجز؛ لا شـمس تشـرق مجددا، بل ولا قمر يهبني خيالات تعبر بي حيث دنيا الآخرين ممن يفترشـون شواطيء المدن الذهبية التى يسكنها الأثرياء، يمتلكون السيارات الفارهة يتسوقون من محالات تأتيها خيرات الدنيا؛ نسـاؤها قطعة من ضوء القمر، أما نحن فقد ملـت منا الفئران وهربت؛ نشـاركها الجحور، وتعبث في أجسـادنا كل براغيـث الأرض، يبدو أن العالم يحوي البؤس ليختال بفرائسه في منازلنا.
هذا صعب على رجل اعتاد أن يرضى بواقعه، أفلح شيخ الزاوية التى يصلـي فيهـا أن يجري له جراحة فـي وصلات عقله: الفقـراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف ألف من السنين؛ احتار في عد أيامها، انشغل بحصـر سـاعاتها، لديه إذا ما يسـبق به هـؤلاء المتخمين فـي البنايات العالية.
وهذه قصة هيسـة التـي قيلت عنها وعن جمالهـا حكاية وراء أخرى حتى بلغت الألف؛ هانحن نجتر ما سلف؛ نتباهى بما فعل السابقون.
لا أعلـم عنه إلا ما حكته جدتي والعهـدة على ذاكرتها التي ربما تكون معطوبـة؛ فتخلـط في كلامهـا حيث بلغت المائـة من عمرهـا وما تزال ترفدني بما أقصه عليكم.
قالـت جدتي: كانت هيسـة امـرأة جميلة تدور بالحديـث عن مفاتنها النسـاء في الحـواري والأزقة؛ تسـامع بهـا الملك؛ وكلكم يعلم شـغفه بالنسـاء ذوات الخـدود الحمـراء والخصور الضامرة ؛ يعتصر عشـر حمامـات ويلتهم بعدها أيـة أنثى تحلو له أو يؤتى بهـا لعرينه؛ إلا أن هيسـة كانـت غجرية ذات مطمع في قصر الملك حلا لهـا المقام؛ يراودها فتتأبـى؛ ألبسـها الحريـر الخسـرواني، والذهـب الخالـص، عطـور باريسـية؛ هيهات تسـتجيب لغرامه أو تطـاوع نزعاته؛ ثار في قصره وزأر؛ أتمتنع عنه بنت أنثى؟
أصابه هم ولازمه كرب؛ اعتل وشفاؤه عند هيسة؛ رق قلبها واشترطت أن يعطيها نصف المحروسـة؛ فالبـلاد توهب للغانيـات وتمنح مقابل ليلة أنس!
جاءت بكاتب المواثيق والعهود؛ شرطت على الملك شاهدين من كفرنا؛ وهـل تفضح امرأة بـين الفلاحين والبـدو والغجـر؟ أدار حيلته: يكتب وتقطع رقابهم عند باب القلعة؛ وكم في القبو رءوس!
ولأن الحيلة تغلب العصا وتجعل الأسد هرا؛ خادعته بشفة معسولة وصبت كأس الهوى نار شوق فخر تائها؛ والحاشية يدها مغلولة؛ فما لأحد أن يتدخل بين هيسة وعشيق برح به الهوى.
من طرف خفي سحبت الورقة وجعلتها في معقد شعرها، تمتلك نصف المحروسـة بورقة ممهورة بخاتم الملك، وهاهي الآن الملكة غير متوجة؛ جاءت بعد ليال ملها، تسـوق الأغنام والأبقار؛ ألفا من العبيد؛ مئات من الجنود، خيول وسفن تجري في النيل؛ شاد لها قصرا في كفرنا، تصرف البلاد برأيها، نسـيت أنها كانت محظية من الغجر؛ أرسـلت رسائل إلى شـاه إيران وإلى ملكة البحار»فيكتوريا» ظنت نفسها بلقيس؛ سليمان يخطب ودها ويجعل لها سـرحا ممردا من قوارير، أو يجعل لها خلخالا من ذهب تتمايل به وتتثنى، فلهيسة مطامح لا تنتهي.
حسـدتها نسـوة فـي المدينـة أن لم يعجـبن أميـر أو يغازلهـن وزير، فللنساء غيرة ومكيدة تعجز الجن أن تغلبهن، تكثر الوشايات، بنت من الغجر تأخذ نصف مملكة يتعب في حصر خزائنها عبقري من الجن؟
جمعن وشـايات؛ جلبن مردة السـحر ألقين بالشـر في طريقها، كانت حية تسعى التهمت ما يأفكون.
دارت برأسـها الخيالات؛ حيث يضرب الجنين رحمها؛ تمنت أن يكون ولدا فيرث النصف الباقي من مملكة مترهلة؛ لقد وهب الملك لسبع نسوة نصف ملك المحروسـة؛ كان شـيطانه يغلبه أن تأتي كل واحدة بصبي يجعله على البلاد وليا لعهده؛ وما ولاية الأمر إلا نزوة طامح ومغامرة ليال في صهوة العراك خمرا تهب له ما يشتهي؛ من فحولة.
كفت جدتي عن حكيها وأمسـكت لسـانها؛ أن ينشر جسدها ويلقى بها فـي هاوية بئر كما يفعل شـيوخ الحكمة بمن يذكـر مباذلهم أو يقترب من لحاهم، ضربني النعاس وتناهى إلى أذني خبط على الباب؛ صياح الديـوك ونبـاح كلبنا الوفي، اشـتدت الريح في ليلة عاصفة؛ نذر شـر قادمة.
وفجـأة حمـدت جدتي ربهـا وصلت علـى نبيه المصطفـى المختار؛ ثم ذهبت لمخدعها لتكمل رحلتها في عالم الأحلام!